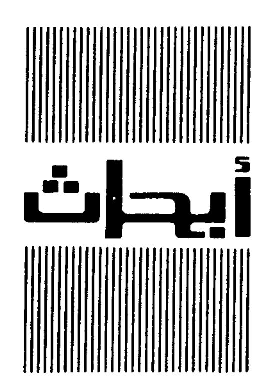


العنوان: حساب مع الجامعيين
المصدر: المسلم المعاصر
الناشر: جمعية المسلم المعاصر
المؤلف الرئيسي: الفاروقي، إسماعيل راجي
المجلد/العدد: ع 31
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1982
الشهر: رجب - رمضان
الصفحات: 47 - 57
رقم MD: 153984
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: IslamicInfo
مواضيع: المثقفون العرب، العالم الإسلامي، الاحوال الاقتصادية، الاحوال السياسية، الاستعمار، خريجو الجامعات، الدعوة الإسلامية، جامعة اليرموك، الاستغراب، الثقافة الإسلامية، التغريب الثقافي، السياسات التربوية، الأخلاق الإسلامية، التعليم الجامعي
رابط: http://search.mandumah.com/Record/153984


المنظومة
ALMANDUMAH



حساب مع الجامعيين

د. اسماعيل الفاروقي

قدم هذا البحث الى جامعة اليرموك بالأردن.

يعيش المسلمون في هذا العصر في أزمات عديدة متشابكة تذهل صعوبتها كل من ينظر اليها بقصد حلها. فالمجابهة العسكرية مع اسرائيل مع من يدعمها من الشرق والغرب تستنزف طاقة اسلامية كبرى. ثم انقسامات الدول الاسلامية على نفسها في الداخل ونزاعاتها مع بعضها البعض تستنفذ طاقة أخرى. ثم إستغلال الأجانب للثروات الطبيعية في الوطن الاسلامي الكبير يسيطر على مقدرات المسلمين الاقتصادية. فهم في كل بقعة من بقاعهم يستهلكون ما لا ينتجون. واذا صنعوا بلادهم، حجزوا الصناعة ضمن حدودهم بدل أن يفتحوا الأبواب على مصراعيها لتنقل الأموال والأيدي العاملة واتساع الأسواق الضرورية لقيام الصناعة. وكذلك، لهوا أنفسهم عن الصناعات اللازمة البناءة للاقتصاد بالصناعات التجميلية أو تلك التي تعتمد على عناصر مكونة يستوردونها من الشرق أو الغرب مما يخضع مصير صناعتهم لرحمة غيرهم.

ولم تقو أية دولة إسلامية على صهر سكانها ببعضهم البعض ليكونوا لُحمةً متراصة تدين بنفس المنظور وتعمل يداً واحدة في سبيل الأمة. وكأن العدو يتربص الدوائر في كل دولة، في داخلها وخارجها، لما سارت اليه علاقاتها بجيرانها. ولم تنجح حتى الآن أية محاولة لتوحيد أي قطرين من أقطار الأمة الاسلامية بل هي تزداد تفتتاً سنة بعد أخرى. ترى حكامها تستنزف طاقاتهم في المحافظة على كراسيهم بدل الانصراف الى ما يصلح حال الأمة ويحقق إزدهارها.

ولقد تعودنا تفسير مشكلاتنا بنسبتها الى الغير، وكأن الغير مسؤول عن مصائبنا، عن وقوعها وعن استمرارها، بل حتى عن تقاعسنا عن القيام بحلها. تعودنا نسبتها الى العدو المستعمر، أو الى القيادات السياسية المتعاملة معه، أو الى قياداتنا المحلية في جميع المجالات،

أو الى رؤسائنا في ميادين عملنا بالذات. كل ذلك تجنباً للمسؤولية التي تقع علينا حقاً. وقد ذكرنا مالك بن نبى رحمه الله ان «لا استعمار دون قابلية للاستعمار»، وأن المصائب قلما تحل في من يمنع نفسه منها ويعدها للصمود ضدها اذا وقعت. كما تعودنا على التطلع الى من ينزل علينا من السماء فيخلصنا من مآسينا دفعة واحدة، وذلك إمعاناً منا في السقم والكسل والمرض.

ولم نع حق الوعي أن حكام أي شعب لن يكونوا خيراً من شعوبهم، وان الشعوب اذا فسدت قياداتها أيضاً. وقديماً قيل «مثلما تكونوا يولّ عليكم». كما وأن حكمة الله وحجته البالغة قضت بأنه سبحانه وتعالى **«لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»**. فاذا أردنا دفع المصيبة وحل المشاكل المستعصية، لزم علينا أن نبدأ بأنفسنا. ولن يكون لنا سبيل على أعدائنا إلا بانتصار لأنفسنا أولاً وآخراً، أي بمحاسبتنا لأنفسنا.

يجوز لنا التساؤل: لماذا يقال هذا الكلام في الجامعة؟ وهل الجامعيون هم المسؤولون والمطالبون بالمبادرة؟ فلماذا يقع الحساب أولاً وآخراً عليهم؟ اذ كانت مشاكلنا مستعصية لهذه الدرجة، وشكلت حلقة مفرغة أطبقت علينا من جميع الجهات، فلماذا يترتب كسرها على الجامعيين؟ وعليهم فقط دون غيرهم من القيادات؟

حقاً، لا ينتظر ان يكسر الطوق ونجو من الحلقة المفرغة إلا اذا تحمل الجامعيون مسؤوليتهم. وذلك لأسباب ثلاثة: **أولاً** — أن الوعي بالمشكلة الأم وتصور الحل الفعال وترجمته الى رؤية جلية واضحة هو بالذات عمل الجامعيين وصنعتهم. ويجب أن يكون ذلك شغلهم الشاغل. فإن قاموا بواجبهم هذا وهم بها مكلفون، أي مكلفون باثبات الرؤية، بتعميقها وتوضيحها ونشرها، بتفهيمها وإرساخها في عقول الطلبة. فان لم يفعلوا فهم أما غير أهل لمناصبهم الجامعية، أو مخلون بواجبهم الذي هو جوهر صنعتهم.

ثانياً: وما العمل اذا كان جامعيونا من غير هذا الوصف، أو كان معظمهم ممن ينظر الى مهنته كوظيفة للارتزاق منها؟ أو رأوا أنفسهم كرعاع الأمة غير مكلفين وغير قادرين على حمل هذه المسؤولية الضخمة؟ أو لم يأنسوا في أنفسهم العدد والعدة اللازمين للقيام بها؟ الجواب أنهم أنفسهم المعنيون بأمر تربية وإعداد خلفائهم في العلم وإكثارهم عدداً وعدة. أوليست الجامعة مصنع الرجال، معهد القادة؟ أليس الجامعي المناط الوحيد بالأمر؟ لا يلام اذا قام به ويلام اذا أخفق؟ أليست الجامعة المؤسسة الوحيدة في الأمة التي إن أعوزها الرجال الكفء لا يجوز لها أن تنظر إلا لنفسها؟

ثالثاً: واذا رأى الجامعيون أنفسهم معلمي تدريب، هدفهم تخريج الطبيب والمهندس والمحامي والمربي المتقنين لصنعتهم دون الاهتمام بما يدينون به من فلسفة حياة أو ولاء أو اسلوب معيشة أو تحزب سياسي؟ تاركين ذلك للتربية البيتية والبيئة والذوق الشخصي؟ فالجواب هو أن على الجامعيين أن يصلحوا أنفسهم. فهم صانعوا الولاء للمستقبل الأفضل. هم المكلفون بحراثة نفوس الطلبة وإعدادها لغرس المستقبل. هم المكلفون بري إيمان الأمة بنفسها وبمستقبلها، برعاية عقيدتها. فالجامعة

حرم الأمة، والايمان قدس أقداس ذلك الحرم.

لهذه الأسباب لابد من توجيه الحساب الى الجامعيين. وإن تساءلنا لماذا للجامعيين في هذه الجامعة بالذات، فلأننا، على عكس ما قاله المثل العامي،* اذ نخاطب الكِنّة نود أن لو تسمع الجارة. فالكلام موجه لجميع الجامعيين في الأمة الاسلامية. واذ استهدف الجامعيون في جامعة اليرموك في هذا الحديث فمن حقهم أن يفخروا بأنهم طليعة الواعين ورواد المبادرين. هم أصحاب الخطوط الأمامية، لهم وحدهم شرف شن الغارة الأولى.

والكلام موجه بصورة خاصة الى الجامعات الجديدة. وجامعة اليرموك إحداها. وذلك لأنه يجدر بها الاستفادة من خبرات اخواتها. فالظاهر أن الجامعات الجديدة بالرغم من حداثتها وتحررها من البيروقراطية والمصالح المتراسبة لم تستفد وابتدأت من حيث ما وصلت اليه الجامعات القديمة.

فلنحاسب الجامعيين. ولنحاسبهم في ما قدموه لحل مشاكل أربع. هي أمّ تأخر المسلمين وانحطاطهم.

١ ـ الاستغراب:

وهل الاستغراب مشكلة؟ ألا يجدر بنا أن ننفتح على الحضارات الأخرى ونأخذ النافع منها؟ وهل في العلم والحقيقة شرق وغرب أو اسلام وكفر؟ أم العلم علم يستخدمه الفاضل للطيب و يستخدمه الفاسق للخبيث؟ ألا يعود تأخرنا الى نقصنا في العلوم بقسط كبير؟ وإن امتنعنا عن أخذ العلم عن الغرب، فمن أين نحصل عليه؟ هكذا يقول المستغربون منا. لكن الاسلاميين يوقنون أن حضارتنا الاسلامية مفتوحة، غير مغلقة. ولا شك أننا مكلفون بتحصيل العلم انىّ وجد والاستفادة منه في تعزيز الأمة وتنمية مواردها وازدهارها. فقد حثنا الله تعالى على العلم وتلقّيه وفضّل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون، وفرض رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، من المهد الى اللحد، ودلّ على ان الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنىّ وجدها. وما من دين ولا ثقافة في الدنيا رفعت شأن العلم والتعلم وحثت الناس على طلبه كما فعل الاسلام.

إلا أن لطلب العلم آداب لابد من مراعاتها، ولنقل العلوم عن الأعداء شروط لابد من تحقيقها. أولها إتقان العلم والهيمنة عليه، أي الالمام التام والتفهم الكامل لكل ناحية من نواحيه. فالتعرف السطحي بالعلم لا يكفي ولا يغني والاكتفاء به جرم. على المسلم الذي يطلب العلم عند الغرب أن ينفذ الى كافة الحقول والمكامن، ويحيط بتاريخ العلم ومنجزاته، و يدرك منهجه النظرية ومسالكه العملية، و يعرف مشاكله وآماله حتى يقف على نشأته وحاجاته وإمكانياته. وعليه أن يعي أنه، من حيث طلبه لذلك العلم عند الغرب، مبعوث الأمة بأسرها الى أمة أخرى لنيل ما حصلت عليه من علم وحكمة، وأن بعثته لن تحقق هدفها إلا باستيلائه على كافة نواحي العلم والتمكن منه والهيمنة المطلقة عليه. لذلك وجب عليه أن يعرف كل ما توفر لدى أساتذته في ذاك العلم، و يقف على آخر تطوراته و يدرك منهجه تمام الادراك بل يجب عليه ان يعي كل ما حققه ذلك العلم في الغرب وما سيحققه لينقله الى أبناء الأمة و يعمل على

إنمائه وتطويره بحيث يخطو به الى الأمام متفوقاً على الغرب وأساتذته الذين نهل العلم عنهم. فيكون الطالب أو الجيل المبعوث آخر من تحتاج الأمة الى ابتعاثه لهذا الغرض اذ يكفيها بعلمه وبتعليمه لابنائها ويعدهم للتفوق على أعدائها وأصدقائها فلا يجوز للمسلم المبتعث الحصول الجزئي أو عدم الهيمنة على العلم المنبعث لأجله ككل. ذلك أن التحصيل الجزئي يؤدي الى اعتماد الأمة على العدو وعدم الاستغناء عنه. فكلما احتاجت الأمة الى ذلك العلم اضطرت الى ابتعاث أبنائها من جديد أو استيراد الكفاءات الأجنبية. وهذه هي التبعية البغيضة التي يجب على الأمة التخصل منها. فإذا كانت الأمة ضعيفة متأخرة جاهلة بذلك العلم وابتعثت أبناءها لتحصيله كان واجباً ضرورياً عليهم أن لا يحّولوا ضعفها وجهلها الى تبعية. بل ان ينهضوا بها ويشيدوا صرح ذلك العلم فيها. وهذا لا يتم إلا بالتحصيل الكلي والهيمنة على العلم بكامله.

ولكي يقوم بهذا المعنى من الابتعاث في طلب العلم يجب أن يكون الطالب ذا رسالة يكرس لها الجهد والحياة في مثل هذا الطلب الكلي للعلم. يجب عليه أن يعي دوره تماماً كآخر المبتعثين، كناقل الشعلة التي تؤجج ناراً لا تطفأ ولا تحتاج لشعلة أخرى بعدها أبداً. لذلك فانه لن يكتفي بأخذ الدروس اللازمة للتخرج فحسب بل يتعدى متطلبات التخرج ويأخذ كل مافي جامعته بل والجامعات الأخرى من دروس في ذلك العلم. واذا أخذ درساً فليس قصده الحصول على العلامة الناجحة فحسب، بل الاحاطة بكل ما في تلك المساقات من مواد وعلم، مما يقدمه الأساتذة ومما لا يقدمون للطلبة بل يعملون على تثبيته وتنميته في مختبراتهم ومكاتبهم الخاصة.

إلا أن مبعوثينا لا يستحقون الابتعاث. فهم أولاً ليسوا أصحاب رسالة ولا يعون أنهم في ابتعاثهم يمثلون أمة تطلب العلمْ وتلح على التمكن منه والابداع فيه. واذا وعوا فهم غير مستعدين لاستيعاب كل ما في ذلك العلم والهيمنة عليه. نحن نبعث من لا يطلب العلم لوجه الله بل لمنفعة شخصية مادية مؤقتة. فلا حافز لديه لاستيعاب العلم كله ولا وازع عنده إذا تبيّن له أنه يمكنه التخرج ونيل الشهادة وتحقيق منفعته التي جاء من أجلها دون ذلك الاستيعاب. هذا كله على فرض أننا لا نبتعث إلا الأذكياء العباقرة.

واذا تخرج هذا المنبعث وعاد الى الوطن ووُظّف في هيئة تدريس جامعية، خرّج الطلبة على شاكلته. إن فاقد الشيء لا يعطيه. وهو بالطبع لا يقرأ بعد تخرجه إلا ما قرأ قبله، لأنه لم يكن يجاري العلم في تقدمه. لذلك يتخرج طلاب ذلك الأستاذ لا يعرفون

فلا يجوز للمسلم المبتعث الحصول الجزئي أو عدم الهيمنة على العلم المنبعث لأجله ككل. ذلك أن التحصيل الجزئي يؤدي الى اعتماد الأمة على العدو وعدم الاستغناء عنه. فكلما إحتاجت الأمة الى ذلك العلم إضطرت الى إبتعاث أبنائها من جديد أو استيراد الكفاءات الأجنبية. وهذه هي التبعية البغيضة التي يجب على الأمة التخلص منها. فاذا كانت الأمة ضعيفة متأخرة جاهلة بذلك العلم وابتعثت أبناءها لتحصيله كان واجباً ضرورياً عليهم أن لا يحولوا ضعفها وجهلها الى تبعية. بل ان ينهضوا بها ويشيدوا صرح ذلك العلم فيها.

وهذا لا يتم إلا بالتحصيل الكلي والهيمنة على العلم بكامله.

العلم إلا قليلاً، ولا ينشدون الهيمنة عليه. بل شأنهم كشأن أستاذهم يأخذون عنه عدم اخلاصه للعلم وعدم إخلاصه للأمة التي إبتعثته. وهؤلاء، اذ يبتعثون لطلب العلم في الخارج قاموا بما قام به أستاذهم أو أقل درجة وهكذا دواليك وتعجز الأمة عن تثبيت العلم في ربوعها وعن الاستغناء عن الغرب. والاعتماد عليه، وتبقى تابعة له، مقلدة لعلمه تقليداً ناقصاً لا يغني.

والغريب في الأمر أن العرب باشروا في ابتعاث أبنائهم للدراسة في الغرب منذ أوائل القرن التاسع عشر وبعد حملة نابليون بالذات. وقد مضت عليهم سنين طويلة وهم يقذفون بابنائهم الى الغرب جيلاً بعد جيل دون الاكتفاء بما نقلوه عن الغرب، ودون فلاحهم في زرع العلم في ربوعهم أو تنميته بشكل يثبت اي تفوق لهم فيه. فان دلت جامعاتهم وكلياتهم ومكتباتهم على شيء فهي تدل اليوم على انحطاط المستوى العلمي عندهم وافتقارهم الى الكتب والمراجع. أين هي الجامعة الاسلامية التي أنشأت اي قسم أو برنامج دراسات يعادل أو يقارب ما هو متوفر في ألف جامعة وجامعة في الغرب في ما يخص العلوم الطبيعية؟ أو غيرها من العلوم الحديثة؟

ألم يسمع المسلمون بأن روسيا واليابان والصين كانت الى أواسط القرن التاسع عشر توصف بما توصف به أمتنا من جهل وتأخر؟ وأنّ كلاً منها أرسلت أبناءها الى الغرب لتحصيل العلوم؟ وأن كلاً منها اكتفى بعد جيلٍ من المبتعثين عادوا الى بلادهم وزرعوا العلم الجديد وأتقنوه؟ بل أنهم تفوقوا فيه على الغرب وجامعاته؟ فاذا استطاعت روسيا القيصرية التي كانت تعيش في قرون مظلمة حقاً، واذا استطاعت اليابان التي كانت تعيش عيشةً بدائية وتعتبر من حيث الحضارة والثقافة عيلة على الصين. واذا استطاعت الصين التي كانت مستعمرة الى عهد قريب جداً، وبها من السكان بليون من البشر بكل ما يحيط بهم من مشاكل ولها أبجدية فيها أربعون ألف حرف، اذا استطاعت روسيا واليابان والصين أن تقيم فيها العلوم الحديثة مستغنيةً عن الغرب، فلِمَ لا يستطيع المسلمون؟ ألا يستحي الجامعيون أن يتقدم العالم وتتقدم الأمم المتخلفة وهم لا يتقدمون؟ وهل يجوز للجامعيين اتهام حكامهم ورؤسائهم وتحويل اللون اليهم بدل أنفسهم؟

٢. الازدواجية:

منذ أن باشر الاستعمار إدارته لبلادنا، وضع نظاماً جديداً لتعليم أبنائنا منقولاً عما عرفه في وطنه ومتطوراً ليلائم مقاصده الهادمة لثقافة الأمة، والمقسّمة لوحدتها والمُفسدة لعروتها الوثقى. وأغدق الاستعمار وأذنابه العطاء على هذا النظام المستورد والعناية به وجعلوه منافساً للنظام الاسلامي التربوي الذي حرموه من العطاء والنمو وأقصوه عن الحياة العامة. وجاء الاستقلال بعد الاستعمار فتبعت قياداتنا الاستعمار بعد زواله ومنحت كل التبشيرات والتوسع للنظام الغربي. فكاد يصبح نظام الأمة الوحيد. تقلص النظام الاسلامي وبقي على تأخره وعدم فاعليته وكاد إهمال الأمة له أن يقضي عليه.

تخرجت أجيال من كلا النظامين، لكن

كلا الفريقين ممسوخان: أناس متخصصون في العلوم الحديثة لا يعون هويتهم ويجهلون تراثهم ولا رؤية حضارية لهم فهم ضياع. وأناس متخصصون في العلوم الاسلامية المقتصرة على الدراسات الفقهية لا يعرفون من العلوم الحديثة شيئاً، ويجهلون العالم الحديث ومشاكله رغم معيشتهم فيه ومعاناتهم لمشاكله. يشبه الفريق الثاني الكهنة الذين لا يعرفون إلا طقوس الدين وممارساته بأضيق معانيها. و يشبه الفريق الأول الكاريكاتور والمماسيخ الذين لا هم عرب ولا عجم، لا إسلاميون ولا غربيون.

بل تغير مفهومنا للاصلاح التربوي الى الأسوأ. وقمنا باصلاح الأزهر باضافة الكليات الجديدة ومَساقات العلوم الحديثة اليه، لا بتنمية أو اصلاح الدراسات الاسلامية فيه. فأدخلنا الازدواجية الى كليّاته و برامجه وذلك أسوأ شراً من إزدواجية تواجد الأزهر والجامعات الغربية في ربوعنا. ولم نفلح بهذه ولا بتلك بل أضعنا التربية الاسلامية وذلك بتضييق مكانتها في برامج الدراسة. ووحّدنا المدارس الأزهرية بالمدارس العامة فقضينا على تفوق الأولى باللغة العربية والدراسة القرآنية ولم نقوّ الثانية.

أوجدت الازدواجية تبايناً بل هوة بين رجال الأمة، بين من اضطلع بالرؤية والتراث الاسلاميين ومن استغرب رؤية أو فكراً أو طباعاً. والمستغربون لا يقوون على مخاطبة الأمة فهم بعيدون كل البعد عن ضميرها وإحساسها وتطلعاتها. لا ثقة لها بهم. وهذا مما يجعلهم يمعنون في استغلالها والتعامل معها على أساس من الانتهازية والمنفعية مما يزيد طينتهم بلّة. أما الاسلاميون فلديهم الايمان وثقة الأمة لكنهم يعوزهم الالمام بالعالم الحديث، بمشاكل الأمة والعالم من حولها. وهم، اذ لا تنسيق لفكرهم، يتخبطون كل ما تكلموا في هذه الأمور. والأمة حيرى، تدرك نقص الفريقين ولا تولي قيادتها لأي منهما وذلك مع ميلها الطبيعي الى الاسلاميين.

ولا حل للازدواجية إلا في الجامعة. فالجامعة فقط هي الحافظة والمربية والمعلمة. هي وحدها التي تستطيع إزالة الازدواجية في الأمة بإزالتها من التعليم. والتعليم إختصاصها. فما عليها إلا أن تحسن تعليمها للناس وذلك بتعليمهم التراث الاسلامي وتوعيتهم حضارياً وتمكينهم من العلوم الحديثة ومشاكل الأمة من منظور الاسلام. فيتخرجون موحَّدي الشخصية، متواصلين مع سلفهم، موالين لدينهم ومتفاعلين مع عصرهم. والأمة جاهزة للتجاوب مع مثل هؤلاء الخريجين، بل هي تتطلع اليهم لتوجيهها في محنتها الحاضرة.

لكن أين الجامعة التي نجحت في إزالة الازدواجية؟ والتي وضعت خطة لازالتها؟ أو التي تعي المشلكة بجميع أبعادها؟ نحن ننشىء جامعات دون أن نقيم فيها الدراسات الاسلامية؟ وندرس فيها العلوم الحديثة كما تلقيناها من مصادرها الغربية، دون إتقان وإكمال، ودون صهر لها في ثقافتنا الاسلامية، بل دون محاكاتها لمشاكلنا ومجتمعنا. نحن ننقلها الى الطلبة بعلاتها وخصوصياتها الغربية جاهلين أو متجاهلين أنها أقيمت واستندت على وقائع غربية، وعنيت بمسائل غربية ووضعت حلولا متلائمة مع الثقافة والمجتمعات الغربية. وكذلك إن توسعنا في مدارسنا الاسلامية أو كليات الشريعة في جامعاتنا، أوغلنا في الدراسات والمقارنات الفقهية وأمعنا في تناولنا للقرآن الكريم

دون أن نتدبره، وفي الحديث الشريف دون ادخاله في معالجة قضايانا الحديثة. فلذلك اتهمنا، وفي اتهامنا شيء من الصحة، بأننا لا نحاول التفقه بالدين من أجل الحياة، وكأن الاسلام دين يتنكر للحياة كالمسيحية والبوذية.

يزيد الازدواجية سقماً ما تعانيه أمتنا من انقسام في تبعيتها للاتحاد السوفيتي والدول الغربية. ترى أبناء الأمة يتتلمذون على أيدي الأمريكان والانجليز والطليان والفرنسيين والألمان وغيرهم من دول الغرب، كما يتتلمذون على أيدي الروس والألمان الشيوعيين والصينيين وغيرهم من الأمم الأعضاء في المعسكر الشرقي. وتراهم أيضاً آخذين في التتلمذ على أيدي الهنود والباكستانيين والأوستراليين والماليويين مما يفتت قيادة هذه الأمة شر تفتيت. فالمسلمون يرجعون الى أوطانهم يحملون وجهات النظر وعادات الأمم التي درسوا فيها و يدافعون عنها بولاء يفوق ولاء تلك الأمم.

هذه الازدواجية المقيتة التي نعيشها اليوم ميّعت شخصيتنا وأودت بصحتها وسلامتها وتماسكها كشخصية حية صانعة للتاريخ. وقد أصبحنا موضع سخرية للأمم كافة. ألا يستحي جامعيونا من استمرار هذا الوضع السقيم؟

٣ ــ التقطيب

من آفات الاستغراب والازدواجية أننا ابتلينا بما ابتلي به الغرب الذي نقلنا عنه. وان ورثنا عن أسلافنا شيئاً من هذا من جراء ممارستهم للتصوف الغالي، فاستغرابنا عمق التقطيب وأوسع رقعته الى أن شكل في جامعاتنا أمراضاً تفسد علينا مساعينا.

أ ــ تقطيب الدين والحياة

ذكرنا أن الاستغراب والازدواجية أبعدا الفكر الاسلامي عن محاكاة العصر الحديث، كما أبعدا الفكر الحديث عن الانتفاع بالفكر الاسلامي وإثرائه وتمكينه من الهيمنة على المكونات الرئيسية لمصير الأمة وكينونتها. لكن حياتنا الجامعية اليوم لا تعرف شيئاً من الممارسة الدينية. وهي تميل عنه كل الميل الى علمانية شاملة لكل شيء. فبالاضافة الى تباين الفكرين الغربي والاسلامي، استحكم التقطيب في جامعاتنا. فأصبحت الممارسة الدينية قليلة ممتهنة لا تعطي حقها لا في المكان، فقلما تجد مسجداً يقع من أي حرم جامعي موقع القلب، ولا في الزمان، إذ لا تجد جامعة واحدة في العالم الاسلامي كله أقامت براجها على جدول الاسلام الزمني. فالدراسة تبدأ في الثامنة بدل الفجر الذي تعد صلاته بداية المبتدى. ولا تتوقف تماماً عند صلوات الظهر والعصر، كما أنها لا تستمر بعد صلاة الجمعة كما أمر الله تعالى، ولا تنظم أيام الأسبوع السبعة ولا أشهر السنة الاثني عشر. لقد اقتبسنا جدول الغرب وتبعناه كالخراف دون وعي مع مافيه من هدر لطاقات شباب الأمة. وليست السبتية من الاسلام بشيء، وليست العطلة الصيفية من الاسلام بشيء وليس النوم بعد الفجر من الاسلام بشيء.

نسمع في جامعاتنا كثيراً عن العلم والتعلم وعن العمل والترقي على السلم الاقتصادي والسلم الاجتماعي. وقلما نسمع عن طلب مرضاة الله في ما نطلبه من نصيب الدنيا، عن مطالبة الضمير الاسلامي بالتيقظ والتكلم في كل ما نحن فيه. فالاسلام دين شامل لجميع أمور الحياة. لكن أين الجامعة التي تضعه فعلا في مقدمة فكر الأستاذ والطالب، وتجعله محور حياتهما الجامعية. فاذا

تقطب الدين عن الحياة في الجامعة، هل من غرابة اذا تقطب عن الحياة خارجها؟

ب ــ تقطيب الأخلاق والتعليم

نقلنا عن الغرب فكرة أن العلم والتعليم شيء والأخلاق شيء آخر. يدافع الغرب عن تخصص الجامعة بالعلم والتعليم وابعاده للأخلاق عنها بأن عملية اكتشاف الحقيقة وتثبيتها عملية مجردة عن الأخلاق وأنها تفسد إن دخلتها الأخلاق كعنصر بحث. فالذي يدور في المختبر الدراسي فكري، نظري محض، لا يتغير بانحطاط المختبر الأخلاقي أو سموه. كما أن غاية الجامعة وأستاذها التعليم، أي بث هذه الحقائق المجردة، لا إصلاح الناس. فالتعليم والاصلاح عمليتان تخصصيتان منفصلتان عن بعضهما البعض تمام الانفصال. للتعليم رجاله وهم الأساتذة الجامعيون، وللاصلاح رجاله وهم الأولياء ورجال الدين.

نشأت فكرة التقطيب بين الأخلاق والعلم في الغرب في القرن الماضي، وإن كانت جذورها تمتد الى عصر الاصلاح الديني. وكان قصدها تحرير الجامعة والتعليم كله من نفوذ الكنيسة. وكان هذا النفوذ المتنطع، الجاهل، الذي فرض على العلماء ما احتوته تعاليم الكنيسة والكتاب المقدس من خرافات وأساطير، سبباً في قيام الثورة الاصلاحية التي حطمت سلطة الكنيسة وفرضت عليها التزام الجانب الطقسي من الحياة وتسليم قيادات ميادين الحياة الآخرة الى أهلها. وأعقبت ثورة الاصلاح الديني الثورة الفرنسية فأكملت ما أنجزته الأولى في الحقول السياسية والاقتصادية.

وفي القرن الماضي، سارت الثورة على الكنيسة خطوة أخرى فأبعدت نفوذها عن العلوم الانسانية والاجتماعية فضلا عن العلوم الطبيعية المتحررة من قبل.

فالكنيسة كانت تضع الرجال موضع الله وتدعي أنهم يتكلمون باسمه ونيابة عنه، تعالى عما يصفون. و بالاضافة الى الافتراء على الله تعالى، كان للكنيسة أجهزة لتطبيق تعاليمها المزعومة وكانت لها سلطات سياسية واقتصادية واجتماعية تمكنها من هذا التطبيق. أفإن كانت تعاليمها تمزج الطيب بالخبيث، فانه من حق الناس الثورة عليها. أما نحن المسلمون، فليس عندنا كنيسة ولا حاجة لنا في مشاركتهم في ثورتهم.

وقال الغربيون أن العلوم كلها ــ ماعدا الانسانيات وهي لم تحظ منهم بلقب علم ــ موضوعية لا علاقة لها بالارادة الانسانية وانها تعتمد البرهان الحسي والدليل القاطع فقط. اما الأخلاق، ففي نظرهم انها لا تعتمد على حقائق بل على الارادة والايمان الديني وكلاهما عرفيان، لا يقومان على دليل. وادعى الغربيون أن بين التعليم والدعوة فجوة لا يمكن سدها. وكان هذا موقف الغرب حتى الحرب العالمية الأولى.

وقد اكتشف الغرب خطأه هذا بعد الحرب اذ أثبتت الفلسفة ان ليس هنالك ادراك نظري وادراك عملي أو أخلاقي منفصل عنه بل الادراكان متصلان واقعان في نفس الوقت و بخصوص المدرك الواحد نفسه. بل ليس هناك ادراكان بل إدراك واحد له ناحيتان نتبينهما بعملية تحريرية يقوم بها العقل. واستخلص من هذا أن كل تعليم دعوة سواء كان في العلوم الطبيعية أو الرياضيات أو الانسانيات. إلا أن الدعوة والارادة مكشوفتان في الأخيرة ومكنونتان في الأولى والثانية. لكن ميل الغرب الى التشكك وامعانه فيه كمبدأ مطلق، أدى الى إهمال الانسانيات واغفال الناحية القبيحة أوالأخلاقية

في العلوم الأخرى مكتفياً بتعريف الطالب واعلامه عنها. لكنه أوغل في بحث النظرية الجديدة ووضع لها علماً جديداً سماه علم اجتماع العلم أو Sociology of Kuowledge .

وعلى فرض أن هذا الذي يدعيه الغرب صحيح، أليست حاجتنا شديدة لتقويم الأخلاق بيننا، الى ايقاف التدهور الأخلاقي المتفشي في مجتمعنا؟ أليس همنا الأكبر بناء الأمة من جديد؟ فهل يجوز للجامعيين أن يتعاطوا العلم دون التعرض للأخلاق سواء كانوا أساتذة أم طلاباً؟

ومن ناحية نظرية، نحن لا ندين بالتشكك المطلق بل نرى أن الأخلاق وان لازمت كل ألوان المعرفة فهي خاضعة للبرهان القطعي والتعقل والتثبت تماماً كالحقائق والنظريات الطبيعية. ولا يمكن لنا اعتبارها ارادية محضة، أو عرفية كما يدعي الغرب. فهو اعتبرها كذلك لانها جاءته عن طريق الكنيسة ذات السلطة العرفية. اما نحن، فقد جاءتنا الأخلاق عن ديننا وهو دين العقلانية والبرهان والدليل والحكمة.

لكن أين جامعاتنا التي وضعت التنشئة الأخلاقية جنباً الى جنب التعليم النظري؟ أين هي برامجها التي تثبت ذلك؟ وأين أخلاق الأستاذ والطالب من سلم أولو ياتها؟

ج ــ تقطيب الفكر والعمل:

وآفة أخرى من آفات الاستغراب والازدواجية أن العلم المنقول عن الأجانب، وهو نابع من صميم مجتمعهم لمعالجة مشاكله، لا ينطبق على مجتمعنا وعينا ذلك أو لا. وطالما أننا لا نعي هذه الحقيقة في معظم الأحيان ظناً منا أنه موضوعي ينطبق على من في الأرض ومن في السماء كما ادعى الغربيون في غلوهم وضلالهم، نتعلم العلم المنقول دون ما نحاول تطبيقه على واقعنا. نتعلمه كالببغاء. وسبق أننا أمعنا في التأمل وغلونا فيه تحت تأثير التصوف. فأسرفنا في وصف المثال والخير المطلق في كل باب دون الاهتمام بالواقع المخالف. ولعل عدم اهتمامنا فيما مضى بالواقع المخالف ــ لا سيما في عالم السياسة وعالم الطبيعة، حيث أهملنا طغيان السلاطين وحيث تهربنا من نواميس الطبيعة الى خيال الكيمياء السحرية ــ كان هرباً منه وضعفاً في شخصيتنا. فجاء الاستغراب بعلومه المنقولة يعزز الضعف و يرسخه و يزيده ضعفاً.

وإذا كانت هذه الظاهرة موجودة في جامعاتنا فهي بحكم اللازمة بين طلابنا الذين يدرسون في الخارج. فبحكم تتلمذهم على الأساتذة الأجانب وفي الجامعات الأجنبية، يتناولون بحث مشاكل الغرب في أطروحاتهم، وذلك لتوفر وسائل البحث وتشجيع الأساتذة من جهة أخرى. واذا تناولوا موضوعاً لأ بحاثهم مسائل العالم الاسلامي كان ذلك أسوأ أثراً لخضوعهم لتوجيهات أساتذتهم الأجانب ولاقتناعهم وتمسكهم بهذه التوجيهات. وعلى كل حال فالعالم الاسلامي دائماً هو الخاسر.

د ــ تقطيبات اخرى

غالب مانشاهد في جامعاتنا فصلا يكاد يكون تاما بين الجامعة والمجتمع. فالجامعة عندنا مركز للتعالي على المجتمع، اذ ينظر الجامعيون ــ اساتذة وطلبة ــ الى المجتمع من عل ظنا منهم أنهم أفضل منه وأجدر برغد العيش وأقرب منه إلى التفرنج. وما من جامعة في بلادنا تعتبر نفسها امتداداً للمجتمع قائمة لخدمته. فالجامعات عندنا لا تفتح أبوابها للمجتمع، ولا تقيم البرامج التي يستطيع اعضاؤه المشاركة فيها. وطبعا هي لا تريد أن

تعرف حاجات المجتمع فالأ بواب بينها و بينه مقفلة.

كما أن الأستاذ مفصول كل الفصل عن الطلبة. فالاستاذ والطالب قطبان لا يجتمعان إلا في قاعة المحاضرة ولا يتفاعلان. الاستاذ يحاضر أو يملي والطالب يستقبل المادة ليتقيأها يوم الامتحان. لايعرف الاستاذ طلبته شخصيا فهو لا يقوى على ذلك لكثرتهم الهائلة وهو ان استطاع تقاعس تعظيما لنفسه عليهم. أين الاستاذ الذي يدعو طلبته الى بيته، و يزورهم في بيوتهم، و يهتم بأمورهم التربو ية وغيرها؟ وأين الاستاذ الذي لا يفرح بالانتهاء من القاء محاضراته عليهم؟ وأين الاستاذ الذي يرضى بأن يلبس تلميذه عمته الأكاديمية و يتحدث بلسانه كما كان يفعل الطلبة المسلمون المجازون من قبل شيوخهم في العصور السالفة، حيث توثقت صلة الطالب بشيخه واقتنع الشيخ بأن عقله وعقل طالبه يعملان على شاكلة واحدة؟ كم من اساتذتنا يرضون اليوم بتحمل المسؤولية اذا تحدث تلامذتهم في أي موضوع؟ بل في موضوع تخصصهم؟ وكم منهم يرضون اليوم بتحمل المسؤولية اذا ظهر تلامذتهم وسلكوا مسلكهم في المجتمع؟ الا يحاسب الجامعيون على هذه التقطيبات التي تفسد الجامعة، وتفسد المجتمع، وتفسد التعليم نفسه؟

٤ ــ الرسالة:

وأخيرا وليس آخراً، تعاني جامعاتنا نقصا مريعا في الوعي الرسالي. وهو نقص يعاب الجامعيون عليه لأنه من صنعهم، أنيةً واستمراراً. فالجامعة عندنا ليست جامعة تربو ية بل معهد تدريب يدخله الطالب سعيا وراء مهنة يتعاطاها و يرتزق منها. والانكى من ذلك أن الجامعة عندنا ليست معهدا لتدريب ماتحتاجه الأمة من مهارات وكفاءات، بل هي تدرب وتخرج العقول لتتسرب الى الخارج وتعمل في خدمة الغير. وكانها مكرسة لقطع الابناء عن الأمة والحيلولة دون انخراطهم فيها.

يناقض هذا النقص حقيقتنا التاريخية وهي أننا أمة ذات رسالة سماو ية. فنحن نؤمن باننا على عهد مع الله سبحانه وتعالى، مكلفون بأمره للقيام بدور محوري في التاريخ استخلفنا الله في الارض كي نقيم دينه ونعمرها بذلك ونزيدها خيرا على خير وجمالا على جمال. فنحن لا نعيش لانفسنا بل لله قائمين بما عقدناه مع رسوله صلى الله عليه وسلم من طاعة واحسان وعمل. رسالتنا هي تحقيق الحق و بيان سنن الله في خلقه التي لا تبديل لها، وعجن العالم وهندسته حسب ماتمليه سنن الله الخلقية. همنا اعمار الأرض وإزدهارها وذلك بملئها عمرانا وثقافة وحضارة. كما نؤمن بمسؤوليتنا وحتمية حسابنا يوم القيامة. وقد سلمنا نبينا صلى الله عليه وسلم الرسالة بعد أن بينها ووضحها وحققها في سيرته الكريمة واستأمننا عليها. فكيف لا نرعاها؟

أفـإن كان للرسالة معبد هي قدس اقداسه، فذلك المعبد هو الجامعة، لكن أين جامعيونا من هذا الوعي الرسالي؟ وأين هم من القيام باعبائه؟ أوليست الرسالة مجرد كلام ان لم يضطلع باعبائها الجامعيون؟ أوليست الرسالة أضغاث كلام ان لم يعبىء الجامعيون قوى بشرية قادرة على تنفيذها؟ الا تكون الرسالة اسطورة الاولين ان لم يقم الجامعيون بمحاكاة العصر الحديث من خلالها، وتفتيح طاقاتها على العطاء الحضاري في كل آن؟ أليس ولاؤهم المزعوم لها حشوا سقيما إن لم يبينوا للناس صلتها بكل واقع وحديث؟ ان لم يضرموا

نـارهـا في الـقـلـوب و يـقـيـموا تحقيقها على التعبئة العـامـة والـتـنـظـيـم ؟ فـاين جامعيونا من الرسالة المـحـمـديـة ؟ كـم مـنـهـم أعد نفسه لتحمل عبئها بابعاده الحضارية والعالمية ؟

وان لـم تـكـن الـرسـالة هم حياتهم ومماتهم ، وفـحـوى عملهم وغاية تعليمهم ، فهل هم جديرون بـحمل لقب « الجامعيين » ؟ وهل من يحاسبهم في ذلك كله الحساب العسير الذي يستحقونه ؟

اللهم هيء لنا من أمرنا رشدا .